المبحث الثالث

سلطان الارادة فى في مجال حرية الاعتقاد

تمهيد:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذى أودع فيه الحدود الفاصلة بين إرادة الله وإرادة الإنسان، ولكن هذه الحدود الفاصلة كانت دائماً محل اجتهاد بالخطأ والصواب، وكم شقيت المجتمعات الإسلامية وغيرها بسبب الاجتهادات الخاطئة وأدى فهم الدين بطرق خارجة عن وظيفة الدين فى المجتمع والمنظمة لعلاقة الخالق بالمخلوق إلى مآسى لا نزال نرى آثارها المرة فى جميع الساحات وأبرز تجلياتها الصراع بين المسلمين بأسم الدين والدين منهم جميعاً يحثهم على فهمه بشكل صحيح. ولذلك فإن الصراعات العرقية والطائفية والمذهبية وغيرها تحت مسميات أخرى اساسها أما الفهم الخاطئ للدين وإما توظيف الدين لخدمة الدنيا. فالاشكالية المصطنعة اليوم هى علاقة الدين بالسياسة وهى فى الواقع علاقة الدنيا بالآخرة وفق أحكام الدين، لأن وضع المسألة على النحو السابق والتركيز على التجارب الإنسانية وعدم الإدراك الصحيح لموقع الدين فى حياة الشعوب فى الشرق والغرب هو الذى يؤدى إلى هذه البلبلة.

ولسوء الحظ فإن تأثر العالم الإسلامى بشكل أعمى دون تبصر بتجارب الغرب وعلومه خاصة فى مجال الاجتماع قد دفع علماء الاجتماع فى العالم الإسلامى إلى أحد طريقين، طريق المغرمين بعبقرية الغرب ودفع العالم الإسلامى إلى هذه التجربة دون أن يلحظوا أن تاريخ الصراع الدينى والصراع بين المؤسسات الدينية ومؤسسات الدولة قد انتهى إلى الصيغة التى يسميها الغرب العلمانية، ويؤدى نقلها كما هى إلى بيئتنا إلى شطط كبير فى التطبيق.

فالعلمانية المستوردة تعنى عند البعض معاداة الدين ورجاله ورموزه ومن له صلة به وتنكر على المتدينين حرية ممارسة الدين واعتناقه. بينما تعنى عند آخرين الفصل الكامل بين الدين والمعاملة الإنسانية التى يرون أن مصدرها هو الحضارة وليس الدين بقصد ابعاد الدين وقدسيته عن المعاملات فيصبح التدين أو عدم التدين شأناً خاصاً بصاحبه.

أما الفريق الثانى من علماء الاجتماع فى العالم الإسلامى فقد اتجه إلى اسلمة المعرفة أى أن كل شئ حققه الغرب سبقه العالم الاسلامي إليه ، سواء المجتمعات الإسلامية أو الإسلام فى مصادره الأولية: القرآن والسنة . ولذلك قامت دراساتهم على الكشف عن تجارب المجتمعات الاسلامية وكذلك الدراسات القرآنية فى مجال علم الاجتماع البشرى ثم اجراء المقارنات بين ما تضمنه الدين وبين ممارسات الغرب، فقرر مثلا أن المسلمين أسبق من الغرب فى مجال حقوق الإنسان ويستندون إلى بعض التجارب المتفردة فى سلوك الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أو أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتلك مقارنة بين الدين والمجتمع الغربى، وتكون المقارنة بين مجتمع ومجتمع تماماً كما ظهر سيل من الدراسات تحت عنوان الإسلام والغرب، وهو عنوان لا معنى له لأن المقارنة تكون بين أديان أو بين مجتمعات ولا تكون بين دين ومجتمع. فإذا كان الإسلام سامياً فإن المسلمين فى مجتمعاتهم تفصلهم مسافات بعيدة عن هذا الإسلام، ولذلك فإن مآسى العالم الإسلامى سببها الاساسي ما قررناه فى البداية وهو المسافة الفاصلة بين الإسلام الصحيح وبين التطبيقات الخاطئة لهذا الإسلام.

مجالات سلطان الاراده فى القرآن الكريم :

سلطان الإرادة هو مصطلح قانونى يقصد به مجالات الحرية المتاحة للفرد فى تعاملاته خصوصاً فى المجال القانونى. ويقصد به فى هذا السياق حدود ارادة الإنسان المطلقة فى القرآن الكريم ومجالات هذه الارادة، ونخص بالذكر أخطر مجالين ترك فيهما للانسان حرية مطلقة لا قيد عليها، وهما مجالان يتصلان بالخالق، وهذا أبلغ دليل على أن الله سبحانه يثق فى تدبيره وخلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، فأطلق له العنان فى مجال الاعتقاد أى الكفر والايمان وفى مجال المال خاصة ما سماه القرآن الكريم إقراض الله سبحانه وتعالى، وهما مجالان خطيران، ومصدر الخطورة هو أن علاقة الإنسان بالله علاقة حرة، لا يجبر الإنسان على الإيمان كما لا يجبر على الكفر، ولكن يتخذ قراره بحرية تامة.

ونركز فى هذه النقطة على حرية الاعتقاد لأنه يتصل بشكل مباشر بسوء الفهم والخروج عن النطاق الصحيح للدين فى حياتنا المعاصرة، وأن الإنسان الذى خلقه الله ويعلم كل شئ عنه وقدر فى الأرض رزقه يريد لهذا الإنسان أن يتسامى على سلبياته وأن يغلب حرية الوصول إلى الله بعقله دون خوف من انقطاع الرزق ودون طمع فى الجنة أو خوف من النار وإنما يصل إلى الله كل عاقل، ولذلك هى الطريق الثالث إلى جانب الخوف والطمع وهى طريق الإحسان أى الإيمان بالله لذاته، وهذا يحبط تماماً طرق الدعوة المنحرفة إلى الله بالمبالغة فى التخويف من النار أو المبالغة فى محاسن الإيمان، وهذا المدخل العقلى الذى اعتمدناه فى دراساتنا القرآنية قائم على احترام الله سبحانه وتعالى للعقل ومنحه للحرية وترتيب المسؤلية عندما يتوفر العقل والحرية.

ثم حدد الله سبحانه قواعد الحساب وأكد فى محكم آياته ﴿ **وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ أى أن التقوى مرتبطة بإعمال العقل، وهذا يهدم النظرية العلمانية التى تقابل بين العقل والغيبيات ولا تعتد إلا بالملموسات، وما دام الدين غيباً فإنه فى نظرهم لا يخضع لسلطان العقل. ثم أكد الله فى العديد من آيات القرآن الكريم وظيفة العقل وهى طاقة منحها الله للإنسان ولم يجعلها جزءا من الجسد، وسوف يظل الاختلاف قائماً بين علماء التشريح حول علاقة الطاقة العقلية والقدرات الفكرية بكل من القلب والمخ مصداقاً لقوله تعالى ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ وقوله ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ وقول نبي الأمة {استَفتِ قلبك وإن أفتوك}.

وأخيراً فإن الله سبحانه قد هدى الإنسان إلى الطريقين معاً وألهم النفس كلا من الفجور والتقوى وجعل العقل مناط التمييز ومناط القرار. ولذلك ووفقاً لهذا التحليل، فإن محاربة العقل وإهدار قيمة التعليم والثقافة وعدم صيانة العقول جريمة ،إذا ارتكبها الإنسان كان ظالماً لنفسه معطلاً لملكات الاتصال بينه وبين خالقه وإذا ارتكبها الحاكم كان فاسداً وظالماً يحاسب فى الاخرة على مسؤلية صيانة عقول الناس، ولكن الحاكم الفاسد يفسد العقول حتى لا يتعرض نظامه للنقد والمقاومة فيكون افساد العقل طريقاً إلى استقرار الظلم وعجز الانسان عن ادراك العلاقة بينه وبين خالقه.

ضوابط حرية العقيدة :

اختار الإنسان بنفسه أن يكون حرا بالإيمان أو الكفر ﴿**وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**﴾ ومنحه العقل ليميز بين الطريقين وبين له قبول الله بحرية العقيدة فى قوله تعالى ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ۚ ﴾.

الضابط الأول أن الإيمان والكفر قرار بشرى يهتدى إليه الإنسان بعقله ولا إكراه فيه ولو شاء الله لهدى الناس جميعا وهناك أشارات قرآنية متعددة حول تأكيد هذا المعنى ﴿**هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعلمون بصير**﴾(التغابن٢) . ﴿**لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۖ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ**﴾ (الرعد٣١) وقوله تعالى ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (يوسف ١٠٣) وهناك أشارات تِسرى عن النبى ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (الشعراء ٣).

الضابط الثانى أن الإيمان والكفر سر يحتفظ به القلب بعلاقته بالخالق ولذلك إذا فضح الكافر نفسه لكى يحض على الكفر كان له جزاء أما فى مجتمع مؤمن فجزائه دنيوى.

الضابط الثالث أنه لا علاقة بين الإيمان والكفر من ناحية، وبين الرزق من ناحية أخرى. لقد فصل القرآن الكريم فصلا مطلقا بينهما حتى تتحرر إرادة الإنسان فى الكفر أو الإيمان حتى إزاء الخالق الرزاق المتعال، وحتى لا يكون مكافأة للإيمان أو عقوبة على الكفر.

الضابط الرابع أن جميع الرسل مكلفون بالبلاغ وليس الهداية والآيات القرآنية قاطعة بهذا المعنى (آل عمران٢٠ – المائدة ٩٢ – المائدة٩٩– العنكبوت١٨– التغابن١٢– الشورى ٤٨،٤٧– النحل ٨٢ – الرعد ٤٠ – الغاشية ٢١، ٢٢ – ق ٤٥– القصص ٥٦– البقرة ٢٥٦– الأحقاف٤٦) ففى سورة الرعد رسالة قصيرة بليغة ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾(الرعد ٤٠) وفى الغاشية ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾

(الغاشية ٢١، ٢٢) ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ۚ﴾ ثم كان الخطاب الأبلغ ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ۚ﴾ (البقرة٢٥٦).

ومعنى ذلك أن الله قد ترك للإنسان الحرية المطلقة وفق هذه الضوابط فى الاعتقاد به اعتمادا على أن الله قد أودع العقل فى الإنسان وهو قادر على التمييز بين الكفر والإيمان، كما أن الله أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.